الافتتاحيّة

المنحولات إبداع مسيحيّ أصيل

رئيس التحرير

مقدّمة

تساؤلات كثيرة تثيرها الأناجيل المنحولة، ينبغي إعطاء أجوبة عليها، مثلاً:

هل قيامة يسوع هي مجرّد رمز؟

مَن استنبط شخصيّة مريم المجدليّة؟

ما هو موقع القانون والهرطقات؟

هل الأناجيل المنحولة، خطر أم خير؟

كما أنّ هناك كمًّا من التساؤلات المشابهة التي يحقّ للقارئ أن يحصل على توضيح في شأنها.

ليس هناك من طرح واحد كامنٍ وراء الأناجيل المنحولة، لأنّ الأمر يتعلّق إلى حدٍّ كبير بالإطار الخاصّ الذي يحيط بكلٍّ من هذه الأناجيل.

عندما وُضِعَ إنجيلُ يعقوب التمهيديّ، وهو نَصٌّ منحول من نتاجِ وسطٍ يهوديّ–مسيحيّ معتدل، من الواضح أنّ الغرض منه كان جلاءَ أهمّيّةِ الشريعة، عن طريق التذكير ببعض الحقائق التي تجري مناقشتها من قِبَل فِرَقٍ مناهضة، وبمغالاة زائدة. يكفي أن نفكّر بالطريقة التي بها يعرض إنجيل يعقوب التمهيديّ موضوعَ عذريّة مريم، وتمايزها عن كلّ الخلائق، وعلاقتها الخاصّة جدًّا بيوسف الذي اقتصر دوره على أن يكون حارسًا.

أمّا إذا كان النصّ ذا مصدر غنوصيّ، فمن المؤكّد أنّ الإنجيل لا يعكس العقيدة المسيحيّة الحقّة؛ هذا هو حال إنجيل مريم أو إنجيل فيليبّس، حيث تطفو وبطريقة قويّة المبادىء التضادُدِيّة للرجل والمرأة، للموهبة وللمؤسَّسة، للروح وللجسد... توضع هكذا جانبًا حقيقة التجسّد الإيمانيّة، كما أيضًا حقيقة موت المسيح وقيامته...

بالمقابل، في النصوص التي ظهرت في أوساط معادية لليهوديّة، كما هو الحال في إنجيل مرقيون، مثلاً، يجري تعظيم شخصيّة بولس، ورَفْض كلّ ما يتعلّق بالشريعة العبريّة وبالعهد القديم، ممّا يؤدّي إلى خلق تضادّات لا فائدة منها ومضلِّلة.

١ – إعادة الاعتبار إلى المنحولات

وإذا كانت المنحولات في هذه الأيّام تنعم باهتمام ملفت، كما نتبيّن ذلك من المنشورات التي تصدر حولها في العديد من لغات العالم، أو التي تضع بين أيدي القرّاء النصوص المنحولة بالذات، فإنّها، من ناحية أخرى، بحاجة إلى تحليل ودراسة من أجل إبراز قيمتها الحقيقيّة والدوافع التي أدّت إلى وجودها.

لكن ماذا تقدّم المنحولات عندما تتكلّم على الله وعلى يسوع المسيح؟

إنّها تخبر، قبل كلّ شيء، وحتّى قبل الواقع وما وراء رواية الحدث بحدّ ذاته، عن رغبة، هي رغبة في التعبير عن حوار إلهيّ–إنسانيّ حيث انتظارات الإنسان تُفَسَّر من قبل إله غير بعيد، غير مجرّد، وليس غير مكترث.

المبدأ رائع: الكلام على إله يستجيب! أليس هذا ما يشتهيه المؤمن في كلّ زمان؟ أليس هنا تحدّي مسيحيّة تعرف، في نهاية المطاف، أن تُبرز وجهَ اللهِ الشخصيَّ؟ أليس هذا هو وقت إعادة اكتشاف القيمة الحواريّة والتحاوريّة للممارسات الطائفيّة، كما أيضًا قيمة الصلاة في الدرجة الأولى؟

٢ – النظرة العلميّة والموضوعيّة إلى المنحولات

عشرات الأناجيل، والرسائل، وأعمال الرسل، والرؤيات، تمّ وضعها في فجر المسيحيّة. كمّيّة هذه المؤلّفات ضخمة، وهي على تنوّع كبير من حيث قِدَمُها، وأصلُها الجغرافيّ، وأوساطُها الثقافيّة حيث أُنْتِجَت، وفرضيّاتُها اللاهوتيّةُ التي ألهمتْ واضعيها.

بالرغم من هذه الصعوبات، لا بُدَّ من التطرّق إلى موضوع المنحولات بطريقة علميّة وموضوعيّة، كي يتعرّف القارئ إلى هذا الأدب المسيحيّ العريق والضارب في القِدَم، ويطّلع على الأسباب الكامنة وراء إنتاجه، والدوافع التي جعلت الكنيسة لا تضمّنه في قانون الكتاب المقدّس، والفائدة التي يمكن أن تُجتَنَى من قراءته. هذا الأدب الذي تكتنفه الظلال، والمحفوظُ عادةً للباحثين وللعلماء، هو ذو منافع عدّة، كما أنّ له أيضًا حدودَه.

٣ – الكتب المنحولة أدب مسيحيّ

إنطلاقًا ممّا تقدّم، من الضروريّ والمفيد إعادة الاعتبار إلى الكتب المنحولة، والإقرار بأنّها أدب مسيحيّ بكلّ ما للكلمة من معنى، يعبّر عن إيمان بعض الجماعات المسيحيّة أو بعض من أفرادها بدءًا من نهايات القرن الأوّل، وصولاً إلى القرون الأولى. في الواقع، اعتُبِرَ العديد من هذه المؤلّفات أنّه يتمتّع بسلطان الرسل، ولكونه هكذا،

استعملته الجماعات المذكورة بالاعتبار ذاته الذي للمؤلّفات التي فرضت ذاتها لاحقًا على أنّها وحدها الأصيلة والقانونيّة، علمًا أنّ التقوى الشعبيّة تدين كثيرًا لهذا الأدب الرائع وحتّى أيّامنا.

من ناحية التاريخ الأدبيّ، لا فَرْقَ من حيث الطبيعةُ بين نصوص العهد الجديد وبين المنحولات. يُحيل نوعَا المؤلّفات أيضًا إلى معتقدات أكثرَ منه إلى وقائع تاريخيّة تُفهَم بطريقة موضوعيّة. ويتضمّن الاثنان عناصر متباينة وتوسيعات أسطوريّة، مع الإشارة إلى أنّه، كما أنّ الهويّة الحقيقيّة لبعض واضعيّ المؤلّفات القانونيّة هي غير معروفة، كذلك هو الأمر بالنسبة إلى المنحولات أيضًا.

٤ – الفرق بين نصوص العهد الجديد ونصوص الأدب المنحول

ما يميّز في العمق نصوص العهد الجديد عن الأدب المنحول، هو الطريقة التي تمّ بها تلقّي هذه المؤلّفات في الكنيسة في القرن الثاني، وإدراجُها لاحقًا في جملة الاستعمالات؛ ففي حين أنّه جرى الاحتفاظ بنصوص العهد الجديد لكي تصبح التعبيرَ عن الأرثوذكسيّة المسيحيّة، استُبعِدَت بالمقابل الكتب المنحولة، الأمر الذي أدّى إلى سقوطها في غياهب النسيان، على اعتبار أنّها تقاليد هامشيّة، أو محكوم عليها بسبب استعمال بعض الأوساط غير الأرثوذكسيّة لها، أو أيضًا أُعْلِنَت صراحةً أنّها شاذّة عن الإيمان وخارجة عنه. لكن، في الواقع، لم يتمّ هذا الانتقاء إلاّ عبر عمليّة معقدّة يبقى العديد من وجوهها مجهولاً. وفي غياب سلطة كنسيّة مركزيّة، توجّب القيام بمشاورات طويلة بين مسؤوليّ الجماعات المحلّيّة الأهمّ بهدف اعتماد المادّة الكتابيّة الموجودة، ومن أجل إبراز تدريجيّ لمجموعة الكتب السبعة والعشرين التي شكّلت بذات الفعل العهد الجديد.

٥ – هل يعني هذا أنّ المؤلّفات المعروف أنّها أصيلة والمؤلّفات المنحولة هي قابلة للتبادل إذا ما جرى تجاهل القواعد التي سنّتها الكنيسة؟

هناك اعتراض على هذه الفرضيّة له دافعان: ليس فقط معظَم المنحولات هي أحدث من الكتب القانونيّة، ولكن خاصّةً هي تنتحل قِصصًا عدّة يبدو أنّها لم تُسْتَنْبَط إلاّ لكي تجيب على حاجة لدى البعض إلى ما يُدهش، وعلى مسائل جديدة طرحها المسيحيّون مع ابتعادهم شيئًا فشيئًا عن الأصول وعن البدايات. المسألة هي أكثر تعقيدًا بالنسبة إلى المنحولات الأقدم، كإنجيل توما، مثلاً، وإنجيل بطرس، أو صعود أشعيا، التي يعتبر بعض البحّاثة أنّها قد تكون سابقة للكتب القانونيّة، وبالتالي تتمتّع بسلطان بارز. ومع الإقرار بفائدة هذه النصوص للإضاءة

على بعض النقاط الخاصّة في العهد الجديد، يمكن الاعتقاد بأنّها لا تحتوي معلومات جديدة حول تبشير يسوع والرسل.

٦ – في المنحولات غنى كبير بالنسبة إلى قصّة المسيح

إذا كانت المنحولات لا تأتي تقريبًا بشيء جديد بالنسبة إلى سيرة يسوع الناصريّ، فإنّها بالمقابل تتمتّع بغنى كبير بالنسبة إلى قصّة المسيح في إيمان الجماعات المسيحيّة الأولى. على عكس الصيت السلبيّ الذي أُلصِقَ بهذه الكتب بسبب رَذْل الكنيسة لها وشَجْبِها، لم توضَع بهدف خداع المؤمنين بعقائد إلى حدٍّ ما باطنيّة، أُدْرِجَت بشكل مفرط تحت سلطان الرسل؛ ففي عصرٍ كانت فيه التقاليد التأسيسيّة ما زالت متحرّكة، شكّلت الكتب المنحولة تفاسير روائيّة شرعيّة بكلّ ما للكلمة من معنى: روايات، وأمثال، وأساطير تمّ تَخَيُّلُها للتعبير عن الإيمان، وتعليم المؤمنين، وأحيانًا تنشئتهم بطريقة ترفيهيّة. تشهد توجّهاتهم اللاهوتيّة الخاصّة على مجهود مميّز من أجل نسخ المعتقدات المسيحيّة في ثقافات ذاك العصر المختلفة.

خاتمة

توحي جولة الأُفُق هذه حول المسائل التي تثيرها المنحولات بأنّه ليس هناك من نَصٍّ يحتوي موضوعيًّا الحقيقةَ كاملةً. لذلك كان من الضروريّ، في مرحلة محدّدة، وضع قانون للكتب المقدّسة من أجل تأسيس عقائد الكنيسة وتحديدها؛ ولكن، لأنّ الحياة لا تستطيع أن تولد إلاّ من شاعريّة متجدّدة باستمرار، فإنّ القواعد ليست شيئًا دون الخيال. ولأنّ الروحَ يفلت من أيّ قيد، فإنّه يتنقّل بحرّيّة عَبْرَ الروايات الرمزيّة التي يضعها الناس على المسرح لكي يحاولوا أن يخبروا عن تجسّد الله، وهو حدَثٌ قد تمّ بالفعل، وفي الوقت عينه مستقبل يعود إلى كلّ امرئ تحقيقه. عندئذ، ألاَ تشكّل إزاحة الستار عن الإبداع الأصيل للإيمان المسيحيّ دعوةً إلى إحداث مسيحيّةٍ خلاّقةً أكثر فأكثر في قلب الحقائق المعاصرة؟